

لقاء علمي حول قصور تونس وضواحيها: نداء لترك أثر يدل عليها إذا استحال بعثها على صورتها الأولى

تعتبر تظاهرة قصور مدينة تونس وضواحيها من بين أبرز فقرات برنامج شهر التراث ببلادنا لهذا العام. وقرنت التظاهرة التي انتظمت مؤخرا بالعاصمة ببادرة من وكالة إحياء التراث والتنمية الثقافية بالتعاون مع المجلة المغربية المختصة في المعمار "أرشييات" بين النظري والعملية.

المعرض الذي يتواصل بقصر العبدلية بضاحية المرسى منذ يوم الخميس من الأسبوع الماضي قدم صورة تقريبية لشبكة من القصور بناها الأمراء وأعيان البلاد وأثرياؤها لتكون مقرا لسكنهم وعائلاتهم خلال القرون الخمسة الماضية والتي يعود أقدمها إلى العهد الحفصي أما الجلسة العلمية التي انتظمت يوم السبت بنفس المكان فتعرضت إلى تاريخ هذه المعالم وخصوصياتها ومختلف مكوناتها كما طرحت بعض الأسئلة حول مستقبل هذه القصور في ظل تغيير وظيفة العدد الأكبر من بينها ومدى قدرة المتصرفين فيها على الحفاظ على الجانب الأدنى على الأقل من العناصر التي تدل على هويتها الأولى في صورة تعذر الإبقاء على شكلها الأول وفي صورة ضرورة التعامل بواقعية مع التطورات التي يشهدها العصر.

شاركت في هذا اللقاء العلمي مجموعة من المهندسين المعماريين والمهتمين بالتراث المعماري المشتغلين في حقل البستنة من تونس إلى جانب عدد من الضيوف من الخارج من بينهم بالخصوص حفيد الباحث الشهير "جاك ريفو" . "Jacques Revault" الذي خص القصور التونسية منذ أواسط القرن الماضي باهتمام كبير.

مراجع جوهريّة

ولا تزال أبحاث الرجل الذي انفتح على ثقافة المنطقة من خلال تلقيه تكوينا بمدرسة تلمسان الجزائرية ثم احتكاكه بالمستشرقين وزيارته المكثفة للمتاحف من المراجع القليلة الشاملة والتي تقدم فكرة ضافية حول هذا الطراز من المساكن التونسية بمختلف تفاصيلها.

وقدم الحفيد "لورون ريفو" "Lorand Revault" المشتغل بدوره في الحقل الثقافي ورقة حول مجمل أعمال جدّه. فعاد إلى البدايات. فقد "كان جاك ريفو" الذي عاش بدول المغرب العربي. تونس والجزائر والمغرب سنين طويلة من المنادين بضرورة الحفاظ على الصناعات التقليدية المحلية وكان ناشطا في هذا المجال. الجزء الثاني من حياته خصّصه لفهم تلك العلاقة التي وصفها الحفيد بالتكاملية بين الصناعات التقليدية والهندسة المعمارية. وهكذا انطلق في مشروع بحثه بداية من سنة 1956 حول القصور في تونس وانتهت جهوده البحثية التي تواصلت ثلاثة عقود بمؤلف ضخّم من أربعة أجزاء يعتبر مرجعا أساسيا في مجاله.

قبل ذلك كان السيد محمد نجيب بورقيبة الذي اقتنى قصر "قبة النحاس" بمدينة منوبة الذي صار يرتاده الكثيرون منذ أن تم فتحه لإحياء المناسبات الكبرى بهذا الفضاء كان قد قدم شهادة مقتضبة حول مغامرته منذ أن اقتنى هذا القصر.

السيد محمد بورقيبة بيّن بهذه المناسبة أنه وإن كان رجل أعمال فإنه ليس بغافل عن القيمة التاريخية لهذا القصر. وقدم لمحة في هذا الإجاه فقال أن القصر كان قد بناه الأمير الحسيني الذي يعرف بالأمير الفنان محمد الرشيد باي وكان ذلك سنة 1757. وكان مصطفى باشا باي آخر من سكنه من أبناء العائلة الملكية سنة 1895 ثم تحول إلى مقر لسكن بعض الجينيرالات إلى أن وقع في أيادي الراهبات الفرنسيات اللواتي تمسكن به إلى سنة 2001 وتركنه في حالة مزرية حسب وصفه. وتتواصل الأشغال بهذا القصر الذي يمتد على أربعة هكتارات إلى اليوم رغم فتحه للزوار ورغم استغلاله في عدد من التظاهرات. وشدد المتدخل على صعوبة عملية ترميم مثل هذه المعالم مؤكدا أنها تتكلف سنين من الجهد وأموال طائلة.

حول مستقبل

الحدائق الحسينية بتونس

وجدير بالذكر أن من سنحت له فرصة زيارة قصر قبة النحاس بمنوبة فإنه لا حظ دون شك محاولة إسترجاع العناصر الأساسية التي تعيد إلى الذاكرة الشكل الأولي للقصر ومن بين هذه العناصر الحديقة الشاسعة. وموضوع حدائق القصور الحسينية كان محور اهتمام الورقة العلمية التي قدمتها الباحثة سندس زاير المختصة في هندسة الحدائق بعنوان "مستقبل الحدائق الحسينية". عادت الباحثة بالمناسبة إلى الآثار الباقية من هذه الحدائق إلى جانب ما كتبه الرحالة الأجانب الذين مروا من بلادنا حول هذه الحدائق. واستنتجت أنه وإن أجز جزء من العمل حول أرشفة الحدائق الحسينية في تونس فإنه لا بد من مواصلة الجهد لتقديم جرد كامل لها إضافة إلى تعداد أصناف هذه الحدائق. واستعرضت من جهة ثانية بعض العناصر التي تجمع بين مختلف هذه الحدائق من تخطيط وتنظيم وأنواع الشجر والزهور والنباتات وأحواض الماء إلخ... إضافة إلى ذكر مصادر التأثير في تهيئة هذه الحدائق فركزت بالخصوص على الطراز الفارسي والتركي وبصفة أقل الطراز الأندلسي. وخصت الباحثة حديقة السعادة بالمرسى بالجزء الأكبر من المداخلة. وحديقة السعادة التابعة لقصر السعادة بالمرسى التي كان الناصر باي قد بناه سنة 1912 تحولت إلى فضاء ترفيهي مفتوح للعموم بداية من عام 2002. وقدمت مجموعة من الملاحظات بشأن إعادة استغلال مثل هذه الحدائق متوصلة إلى أنه وإن كان من الصعب المطالبة بإعادة بعث هذه الحدائق على شكلها الأوّلي فإنه لا بد على الأقل من الحفاظ على ما يذكّرنا بماضيها وتوقفت عند أهمية الإلتزام بمعاهدات للحفاظ على هذه الحدائق على غرار ما هو موجود بأوروبا مثلا.

الملامح الضائعة

حدائق قصور المدينة العتيقة

ولاحظت الباحثة إثر بعض الإستفسارات التي وجهها لها الحضور بخصوص الحدائق التي كانت تابعة لقصور المدينة العتيقة أنه يصعب تحديد ملامح هذه الحدائق لقلّة المادة المتوفرة حولها في حين أنه بخصوص الحدائق الحسينية - وهي حديثة نسبيا - هناك امكانية للقيام بجرّد حولها وتحديد مكوناتها وتخطيطها ونظامها وهندستها بشكل عام.

وتجدر الإشارة في هذا السياق إلى أنه تمّ التعرض إلى الإمكانيات المادية كعائق كبير يحول دون تنفيذ بعض المشاريع التي يمكن أن تكون مرجعا في معرفة تاريخ الحدائق في تونس مع لفت النظر إلى تواصل عدم إيلاء بعض الاختصاصات العلمية في مجالات هندسة الحدائق ما تستحقه من أهمية في بلادنا فقد علّقت الباحثة سندس الزاير بنفس المناسبة مازحة أنه يقع التعامل مع من يحمل اختصاصها أحيانا على أنه بستاني أو حتى عامل بالحديقة. كان من المفروض أن يقتصر هذا الملتقى العلمي على ساعات الصباح إلى أنه تواصل إلى ما بعد الثانية بعد الزوال. طول المحاضرات أحيانا ورغبة الحضور في النقاش ثم قلة التظاهرات في هذا الإختصاص كانت وراء ذلك.

نتاج سعيد لحضارات التقت على أرض افريقية

الجلسة الأولى كانت نسائية بحتة وتداولت على الكلمة ثلاث باحثات. تعرضت سلوى درغوث إلى التطور التاريخي للهندسة المعمارية وهندسة الديكور بقصور مدينة تونس وضواحيها فشددت على أن بيوت الأمراء والأرستقراطيين بالعاصمة وضواحيها هي ذلك النتاج السعيد للحضارات التي التقت على أرض افريقية. أما محسونة السلامي فتؤكد على حالة الإنبهار التي نعيشها عندما نتأمل هندسة البيوت القديمة وجدلية الشكل والوظيفة التي تشمل الفضاء والتهئية والأثاث. هذه البيوت تدل حسب نفس الباحثة على أن الهاجس في ذلك العصر كان يتمثل بالأساس في حل اشكالية الجمالية والوظيفة. أما المتحدثة الثالثة سندس زاير فكنا قد تعرضنا إلى أبرز ما ورد في مداخلتها حول الحدائق الحسينية.

افتتح السيد "Denis Le sage" سلسلة مداخلات الجلسة الثانية وركز في ورقته على ثلاثة معالم تونسية وهي قصر باردو الذي وصفه بأنه عاش حكاية طويلة وتعرض لتحويلات عديدة وقصر خزندار بالمدينة العتيقة وقصر البارون ديرلاني بسيدي بوسعيد الذي يحمل اليوم تسمية قصر النجمة الزهراء. المداخلة التي كانت مرفوقة بشريط من الصور ركزت على أدق تفاصيل البناء خاصة منها قصر باردو. وشدد الباحث على أن القصور كانت على مرّ العصور فضاءات للخلق والابتكار والتجديد. أما الباحث لطفي بوزويطة فقدم ورقة حول إعادة توظيف بعض القصور القديمة بعد أن فقدت وظائفها الأولى. ومن بين هذه القصور دار لصرم بالمدينة العتيقة وقصرخير الدين مشيرا إلى أن إعادة توظيف التراث المعماري لأهداف أخرى عملية متفق عليها وتشهد تطورا بالنظر إلى التحولات الإجتماعية والإقتصادية وأثرها على المدينة وتراثها التاريخي.

قدم السيد محمد نجيب بورقيبة فيما بعد شهادته ثم اختتم "لورون ريفو" سلسلة المداخلات وكنا قد أشرنا إلى أبرز ما ورد في المداخلتين بالأعلى.

هاجس المشاركين في هذه الجلسة العلمية حول قصور تونس وضواحيها كان مضاعفا. تعداد هذه المباني والتوصل إلى قائمة شاملة لها من جهة والحفاظ على الحد الأدنى الذي يكشف عن هويتها الأولى إذا ما حتمت قوانين العصر تغيير شكل البناية ووظيفتها وفق ما تنصّ عليه المعاهدات والهياكل المدافعة على الحفاظ على المجموعات التاريخية من جهة ثانية.